امتثال جويدي : شجرة الصبير
(دار الاتحاد : توزيع دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٢)

« انا شجرة الصبير ، لا يميتني جوع او عطش ، ولا تحرقني شمس او يبللني مطر . وكل عزيمة مغامرة تنتحر فوق اشواكي . من احب الله والوطن حمدهما علي وجودي ، ومن بهما كفر مانتني بمكر مانتحر !!» بهذه الكلمات تختتم امتثال جويدي روايتها الفلسطينية الاولى « شجرة الصبير » . وامتثال جويدي هي ابنة القضية المتعثرة قبل اي شيء ، ابنة فلسطين ، انها وداد، ابنة يافا التي لا تنسى رمال شواطئها الاسيرة ، ولا تغيب عن بالها ظلال اشجار البرتقال (اليافاوي) الاصفر . ووداد ، ابنة القضية ايضا ، رحلت مع عائلتها عن يافا خلال الهجرة الاولى الى لبنان ، وحملت معها القضية لتنزرع « شجرة صبير » اخرى على امتداد الساحة العربية . ويلاحظ ان الرواية تفسر — في قسم كبير منها — سيرة المؤلفة الذاتية باسماء مستعارة ، ودون تحديد للزمان . وتلجأ المؤلفة الى الرمز والتجريد في عرضها القصصي لتاريخ القضية الفلسطينية السياسي ، خاصة عند حديثها عن مواقف الانظمة العربية المختلفة ازاء القضية الفلسطينية .

ساق الجنود الانكليز والد وداد الى السجن ، وهي لا تزال في الثامنة من عمرها ، وكانت وصيته قبل ان يقبل الصغيرة ويرحل مكبلا بالحديد : « وداد ، وطنك ، امك نفسك » . وبقيت وداد مستيقظة حتى الصباح الذي اطل مع دوي صوت انفجار شديد وقع في خمارة غولدا القريبة . دخان الانفجار الذي تعالى كان اول اكتشاف في حياة وداد . وتصور المؤلفة هنا سذاجة الطفلة التي اكتشفت ان « النار في الخارج غير نار الموقدة التي تطبخ فوقها الجدة طعام الاسرة » . وتبرز المؤلفة سذاجة الطفلة وداد في مكان اخر من الرواية ، وذلك عندما بدأت وداد في تحديد فهم جديد لمعنى الخوف . « فالخوف من الصرصار غير الخوف من العقرب » . والاسرائيلي ليس كالغول ، لان الغول على الاقل « يسكن بعيدا في اعالي الجبال ولا يحضر الا بدعوة من اهلها ، وهم لا يدعونه الا لان فزعها منه يجبرها على تنفيذ الاوامر » . ويرد تصوير الطفلة وداد ، الساذجة البريئة في مكان آخر ايضا ، فهي لا تعرف من القانون غير تقبيل يد من هم اكبر منها سنا . فالاجوبة التي كانت تتلقاها على اسئلتها ، صفعات متلاحقة دفعت الصغيرة الى الاستسلام لانه « اقرب طريق الى السلامة » . الطفلة الساذجة ، كانت تضيق بكلمات « يا لطيف » ، و « هذه ارادة الله » ، مثلما كان يردد المتفرجون وهم يجرجرون تنهدات عميقة للتعليق عما يحدث من « خراب ودمار » . امتثال جويدي هي التي تضيق بمثل هذه الكلمات، أم وداد ؟ ان المؤلفة هنا تدفع وداد خارج الصورة لتحل محلها ، ولكنها تعود من بعد ذلك ، وتعيد المكان الى وداد حين لم تدرك هذه ان الخطر بات يحيق بالجميع من كل جانب ، الا عندما رأت والدها بعد قنابل مولوتوف من « كحل العين » . فهي رأته وهو « يضع عددا كبيرا من الزجاجات الضخمة الفارغة امامه ويحشوها بقطن مبلل وفي قعر كل واحدة من الزجاجات مسحوق يشبه كحل العين الذي تتزين النساء به وبالمسامير المقطوعة الرأس » .

اذا كان الفن الروائي ليس المهم ، وهذا واضح في رواية « شجرة الصبير » ، فالاهم عند امتثال جويدي هو فضح المؤامرات التي كانت تدبر ضد فلسطين في الظلام ، وضد المقاومة التي حاولت استعادة فلسطين المسروقة . فقد سردت احاديث الكبار المجتمعين في منزل جد وداد ، وكيف كان حزب « اللحية » ، لحية الشيخ اعسر ، يخدم الانكليز واليهود معا . فجد وداد هو الذي قال ان « بعض رجال الدين ، وفي كل الظروف ، يلعب لعبتهم الخطرة الغدرة ناسين الله في قلوبهم طمعا بالسلطة والتاليه » . وأوضحت امتثال جويدي ان الخطر لم يكن مصدره ، رصاص اليهود ومؤامرات الانكليز وحسب ، بل « حملات الاعلام الكاذبة من صحفنا ومنشوراتنا » كانت اكثر خطرا واشد فتكا . ماذا كانت تفعل السلطة حينئذ ؟ كانت توهم الشباب العرب بأنهم الشجعان الاقوياء ليركب الغرور انفسهم فلا يخيفهم الخطر المحدق بهم لان عدوهم ضعيف جبان . وكانت تضع الشباب في جو المقاومة الشكلية لاستقطاب العناصر الوطنية المخلصة ، والهائها عن المقاومة الفعالة .

بعد المؤامرات ، وعمليات البيع والشراء التي قام